

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤) .



يقول **كارل شتينر : (جامعة مونتريال)** وهو عالم نفس [1].

"الاعتقاد بأن كوننا المدهش تطور بصدفة عمياء هو جنون، ولا أقصد بكلمة جنون

معناها العامي بل الأغلب هو المعنى التقني المستخدم في

التحليل النفسي .

وفي الحقيقة فإن مثل ذلك الاعتقاد مصحوب بمظاهر التفكير الفصامي ."

إن " **مبدأ الأنثروبي** " أي العشوائية والذي يقول " بأن جميع الأنظمة في الكون إذا تركت للظروف الطبيعية فإنها مع الزمن سوف تدخل في حالة من الفوضى وعدم الانتظام ."

هذا القانون كسب قبولاً واسعاً في دنيا العلم، وكما أشرنا عندئذ فإن ذلك المبدأ يقتضي بأن يكون خليطاً من المادة المشوشة عشوائياً، وكان ذلك على النقيض في أن الكون أتى من تصميم دقيق متأن كي يخدم الإنسان ويكون مأوى له .

فالدليل الموضح أن مبدأ الأنثروبية هو صحيح حقيقة حيث يمتد مجال هذا الدليل من السرعة التي كان يتطور بها الكون منذ الانفجار العظيم إلى التوازنات الفيزيائية للذرات، أي من الشدة النسبية للقوى الأربع الأساسية إلى كيمياء النجوم، ومن الأسرار الغامضة لأبعاد الفضاء إلى نموذج النظام الشمسي في نسقه وطريقة ترتيبه، ونحن أينما نظرنا وجدنا أن ترتيباً غير عادي يكمن في تركيب الكون، كما رأينا التركيبية والتوسعية للكون الذي نعيش فيه وكيف ضبطت بما فيها جوه كي نحيا فيه، وشاهدنا كيف يردنا الضوء من الشمس والماء الذي نشربه والذرات التي تصنع أجسامنا وكذلك الهواء الذي نستنشق وندخله لرئتنا، وكل هذا يتلاءم بدرجة مذهلة مع الحياة .

باختصار عندما نرى أن أي شيء في الكون فمعنى ذلك أننا نواجه تصميماً غير عادي غرضه

تعزيز حياة الإنسان ودعمها، وأن إنكار حقيقة هذا التصميم يكون تجاوزاً وارتداداً عن حدود العقل كما صرح بذلك العالم النفسي (كارل شتيرن) .

إن مضامين هذا التصميم واضحة جداً، ومع ذلك يختفي هذا التصميم ويحتجب داخل ك لجزء من أجزاء هذا الكون مهما كان دقيقاً، كما أن قدرته وحكمته لا نهائيتان، وكما وضحت نظرية الانفجار العظيم أن هذا الخالق خلق الكون كله من العدم، وهذا الاستنتاج الذي توصل له العلم الحديث هو حقيقة نقلها لنا القرآن ووضحها :

قال تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (لأعراف: ٥٤) .

دون مفاجأة يتضح أن اكتشاف هذه الحقيقة من قبل العلم أزج تماماً بعض العلماء وما زال يفعل ذلك، وهؤلاء العلماء هو الذين يوازنون بين العلم والمادية، وهم أناس اقتنعوا أن العلم والدين لا يمكن أن يسيرا معاً، ومعنى أن تكون علمياً فهذا مرادف من وجهة نظرهم لأن تكون ملحدًا، فهم تدربوا على الاعتقاد أن الكون وكل الحياة فيها يمكن تفسيره كنتيجة أو محصلة لحوادث تقع بالصدفة، وأنها مجرد كليا عن أية نية أو قصد في التصميم أو التخطيط، و عندما يواجه مثل هؤلاء بالحقيقة الواضحة للخلق فيكون ارتباكهم ورعبهم أمراً طبيعياً متوقعا .

ولكي نفهم دعر الماديين يجب أن نلقي نظرة مختصرة على مسألة أصل الحياة .

أصل الحياة :

الذي تستطيع قوله في مسألة أصل الحياة هو أن نطرح السؤال التالي :

كيف أتت أول الكائنات التي وجدت على الأرض؟

لقد كان هذا السؤال أحد أكبر المعضلات الشائكة التي واجهت الماديين في القرن الأخير إلى غاية منتصف القرن العشرين .. لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا . السبب هو أن الخلية الحية الواحدة والتي تعتبر أصغر وحدة للحياة على درجة من التعقيد لا يمكن مقارنتها بأعظم الإنجازات البشرية وأكثرها تعقيداً، وقد أوضحت قوانين الاحتمال تلك الحالة وبينت أنه حتى ولا البروتين يمكن أن يكون قد أتى إلى الوجود بالصدفة، وإذا كان يصح هذا بشأن البروتينات وهي

القطع البناء الأكثر للخلايا، فإن التشكل الكامل للخلية بالصدفة هو أمر مستحيل تماماً ولا يمكن أن يخطر على بال . وطبعاً هذا برهان على الخلق .

لقد ناقشنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتبنا الأخرى لذلك سنقدم هنا بعض الأمثلة البسيطة .

بيّنا في بداية هذا الكتاب كيف أن التشكل بالصدفة للتوازنات التي سادت الكون ليست ممكنة، وسوف نبين الآن أن الاستحالة تصح أيضاً بشأن التشكل بالصدفة حتى في أبسط أشكال الحياة وهي البكتيريا .

إن أول دراسة على هذا الموضوع قام بها (روبيرت شابيرو) أستاذ الكيمياء والخبير في موضوع الدنا (DNA) في جامعة نيويورك، و(شابيرو) وهو دارويني وتطوري في آن واحد وقد حسب الاحتمال لألفين من نماذج البروتينات والتي تأخذ تلك البروتينات لتشكل حتى بكتيريا بسيطة واحدة، وذلك بفرض أنها أتت كلها بالصدفة، ويجب أن نذكر هنا أن جسم الإنسان يحتوي على حوالي مئتي ألف نموذج منها، وطبقاً لحسابات (شابيرو) كان الاحتمال هو (١٠^{٤٠٠٠٠}) [2].

أي العدد واحد متبوعاً بأربعين ألفاً من الأصفار، وطبعاً لا يوجد لهذا الاحتمال أو الرقم مكافئ في هذا الكون .

وبالتأكيد يبدو واضحاً ماذا يعني رقم (شابيرو) . فتفسير الداروينية والمادية للحياة أنها تطورت بالصدفة باطل بالتأكيد ولا أساس له من الصحة، وقد علق (شاندرامانسيغ) أستاذ الرياضيات التطبيقية والفلك في جامعة كاردف على نتائج (شابيرو) وقال :

" احتمال التشكل التلقائي للحياة من مادة ميتة هو واحد إلى عدد (١٠^{٤٠٠٠٠}) وأصفار بعدها، فهذا الرقم كبير بشكل يكفي لدفن الداروينية وكل نظرية التطور وبالتالي لم يكن هناك سائل بدائي لا على هذا الكوكب ولا على غيره، وإذا كانت بدايات الحياة ليست عشوائية فمعنى ذلك أنها نتاج عقل ذكي هادف " [3]

ولقد علق الفلكي (فريد هويل) على هذه النقطة بطريقة مماثلة لشابيرو فقال : " في الحقيقة كيف لنظرية علمية واضحة جداً تقول أن الحياة جمعها عقل ذكي ومع ذلك فإن الشخص يتعجب ويتساءل، لماذا لا يقبلها بشكل واسع باعتبارها بديهية... لكن أغلب الظن أن الأسباب نفسية أكثر منها علمية . [4].

يعتبر كلا **العالمين (ويكراميسنغ) و (هويل)** من الرجال الذين قربوا من خلال أعمالهم الكثيرة العلم من النزعة المادية، ولكن عندما واجهتهم حقيقة خلق الحياة كان لديهم الشجاعة بقبول تلك الحقيقة، واليوم يوجد كثير من علماء الأحياء كان لديهم الشجاعة بقبول تلك الحقيقة، واليوم يوجد كثير من علماء الأحياء والكيمياء الحيوية ممن تخلوا عن القصة الخيالية، وهي أن الحياة انبثقت بالصدفة، أما أولئك الذين ما زالوا مواليين للدراوينية ويجادلون بأن الحياة ما هي إلا نتيجة صدفة فهم في الحقيقة في حالة رعب كما قلنا في بداية هذا الفصل، وهذا بالضبط ما كان يقصده عالم الكيمياء الحيوية **(ميشيل بيهي)** عندما قال :

" لقد كانت نتيجة التحقق من أن الحياة صممت من قبل عقل ذكي هو صدمة لنا في القرن العشرين، حيث كلنا نظن أن الحياة ما هي إلا نتيجة قوانين طبيعية بسيطة " [5]

والصدمة التي شعر بها هؤلاء هي صدمة الوصول إلى العبارات فيها حقيقة وجود الله الذي خلقهم .

لقد كان سقوط قضية أنصار المادية أمراً محتوماً ذلك بأنهم كانوا يناضلون لينكروا حقيقة لم يكونوا يبرونها بوضوح، وفي القرآن الكريم وصف الله حيرة هؤلاء وارتباك الذين يعتقدون بالمادية كما يلي :

{وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ} {٧} {إِنكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ} {٨} {يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أُفْكِ} {٩} {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} {١٠} {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} {١١} {يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ} {١٢} {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} {١٣} {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} {١٤} {الذاريات} .

وواجبنا نحن عند هذه النقطة أن ندعو هؤلاء الذين تأثروا بالفلسفة المادية، وتخطوا حدود العقل أن يعودوا إلى العقل والفطرة السليمة و الحكم على الأشياء بصورة سليمة، كما يجب علينا أن ندعوهم ليدعوا جانباً كل حقد واجحاف وليفكروا في التصميم غير العادي للكون والحياة، وأن يقبلوا هذا البرهان البسيط لحقيقة أن الله هو الخالق .. الخالق المبدع لكل شيء ويدعو البشر الذين خلقهم ليجربوا عقولهم ويتفكروا .

وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِنَّهُ ذَكَرَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (يونس: ٣) .

وفي آية أخرى يخاطب الله الناس بما يلي :

وقال تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل: ١٧) .

لقد برهن العلم الحديث على حقيقة الخلق، وحان الوقت لكل عالم أن يرى هذه الحقيقة وأن يستنبط منها درساً، وإلى هؤلاء الذين ينكرون أو يتجاهلون وجود الله يجب أن يعرفوا مدى عمق ضلالهم وبعدهم عن الطريق الصحيح، لأنهم الحقيقة ويتظاهرون بأنهم يفعلون ذلك باسم العلم .

من ناحية أخرى . بهذه الحقيقة التي وضحاها العلم درساً آخر يجب أن نعلمه لهؤلاء الذين قالوا أنهم صاروا يعترفون أن الله خلق هذا الكون، وهذا الدرس هو أنه ربما كان اعتقادهم سطحياً أو ظاهرياً، وأنهم لا يفكرون بعمق وشمولية بالدليل على خلق الله للكون ويتجاهلون ما يترتب على ذلك من نتائج وعواقب .. وتقايسوا عن تلبية المسؤوليات المترتبة على إيمانهم . ولقد وصف القرآن أمثال هؤلاء الناس كما يلي :

{٨٣} قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥}
{٨٦} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
مَنْ يَبْدَأُ مَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
فَأَنَّى تُسْحَرُونَ {٨٩} . (سورة المؤمنون) .

لقد وصلنا إلى حقيقة وهي أن الله موجود وأن كل ما في الوجود هو من خلق الله وأن يبقى المرء لا مبالياً تجاه تلك الحقيقة هو نوع من الضلال والغفلة . هو الله الذي خلق الكون والعالم الذي نعيش فيه بانسجام وتكامل بعد أن أوجدنا من العدم، والواجب الملقى على عاتق كل شخص أن يحترم أعظم حقيقة هامة في حياته .

فالأرض والسماء وكل شيء بينهما خلقت بأمر الله الأسمى، وعلى البشرية معرفة الله حق المعرفة وعبادته كما يستحق باعتباره سيداً مشرفاً أسمى، وهذه الحقيقة وضحاها لنا الله في قرآنه الكريم فقال : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (مريم: ٦٥)

المصدر : كتاب خلق الكون تأليف الكاتب التركيب هارون يحيى .